سيدنا إبراهيم عليه السلام ...

«أمـــــة في رجـــــل»

(الجزء ٢)

أ.د. صـــلاح ســـلطـان

المستشار الشرعي للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

في مملكة البحرين

تقديم

الحمد للّٰه الذي جعلنا على ملة إبراهيم عليه السلام والصلاة والسلام على سيدنا محمد "دعوة أبينا إبراهيم عليه السلام"، وعلى الآل والأصحاب الذين اتبعوه إلى يوم القيامة، وبعد...

فيستمر رحيق الخير وأمطار البر في هذا الجزء الثاني عن "سيدنا

إبـراهـيـم..أمـة في رجل" ، يقدم لنا فيه المستشار الأستاذ الدكتور صلاح سلطان رؤيـة جديدة عن جوانب النبوغ السبعة التي جعلت من سيدنا إبراهيم عليه السلام فريدا أصيلا في تاريخ أمتنـا وواقعنا المعاصر.

وإنـنـي أدعـو الله أن يجعل من هـذه السلسلة المباركة "قضايا

اجتماعية وإسلامية" سببا في تغيير حقيقي لأبناء أمتنا، عسى أن يشرق عليها نور العز والتمكين بإذنه تعالى.

والله ولي التوفيق...

عبد الله بن خالد آل خليفة

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

١٦ محرم ١٤٣٠ هـ

١٤ يناير ٢٠٠٩م

مقدمة

الحمد للّٰه صاحب النعم وبارئ النسم، والصلاة والسلام علي خير الهداة سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد....

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب «سيدنا إبراهيم...أمة في رجل» وهو بحق عمدة هذا الكتاب وجوهره، فبعد أن قدمت في الجزء

الأول مقدمة ضرورية ودراسة تحليلية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم والسنة النبوية بما أظهر تميزا خاصا لسيدنا إبراهيم عليه السلام، يأتي هذا الجزء استنباطًا لأسباب هذا التميز في توازن كل دوائر الالتزام في حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام وأهمها:

الجانب الأول : سمو علاقته

باللّٰه عز وجل.

الجانب الثاني: البر بالأب حتى لو كان كافراً .

الجانب الثالث: حُسن العشرة مع زوجتيه.

الجانب الرابع: حُسن تربيته أولاده.

الجانب الخامس: إكرام ونصح قومه ومجتمعه.

الجانب السادس: الإيجابية مع السلطة السياسية.

الجانب السابع: التخطيط لإصلاح المستقبل.

وهذه بحق تمثل قمة النبوغ في رسول نبي بمكانة سيدنا إبراهيم عليه السلام ولقد كان هذا الاستنباط من أعظم الفيوضات الربانية التي منَّ الله بها عليَّ من التدبر في نصوص

القرآن الكريم والسنة النبوية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، مما يوجب أن يراجع كلٌّ منا نفسه: هل نقتدي بسيدنا إبراهيم عليه السلام في كل جوانب حياتنا أم أننا نختزل التزامنا في جانب دون آخر؟! هذه هي الرسالة الكبرى التي يحملها هذا الكتاب.

أدعو الله أن يعيننا على أنفسنا لنحسن الاقتداء بسيدنا

إبراهيم عليه السلام في اكتمال وتوازن جوانب الالتزام السبعة في حياتنا الخاصة والعامة، حتى نلقى الله غير مضيعين للأمانة أو مشوهين للرسالة.

والله ولي التوفيق...

أ.د / صلاح الدين سلطان

مملكة البحرين

صفر ١٤٣٠هـ / فبراير ٢٠٠٩م .

المطلب الثاني

سيدنا إبراهيم عليه السلام واكتمال جوانب الالتزام السبعة

إذا كانت النصوص الشرعية من قرآن وسنة ناطقة برقي مكانة سيدنا إبراهيم عليه السلام عند الله تعالى ثم عند المؤمنين في كل زمان، فإنني أعتقد بيقين أن أبرز جوانب النبوغ في سيدنا إبراهيم عليه السلام إضافة

لما سبق عرضه في القرآن والسُنة هو اكتمال وتوازن دوائر وجوانب الالتزام السبعة لديه، وكانت هذه هي خلاصة المعايشة مع القرآن والسُنة بالعقل تدبراً، وبالقلب تأثراً، وبالنفس تغيراً، أما عن هذه الجوانب السبعة فهي كما يلي:

الجانب الأول

سمو علاقته باللّٰه عز وجل

إن عبارات القرآن وألفاظ السُنة النبوية تؤكد بيقين أن اللّٰه تبارك وتعالى يحب عبده ونبيه ورسوله وخليله إبراهيم حبا فياضا، حيث يقول تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ**

اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل:١٢٠ - ١٢١)، ووصفه في سورة هود بأنه: ﴿**لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ** ﴾ (هود : ٧٥)، وكان: ﴿**صِدِّيقًا نَبِيًّا** ﴾ (مريم:٤١)، وأوتي رشده كاملا كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ** ﴾ (الأنبياء:٥١)، ووصفه بأنه: ﴿وَفَّى﴾ (النجم : ٣٧)، أما سورة

الصافات فترسل سلاماً دائماً متواصلاً على إبراهيم عليه السلام: ﴿**سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ (الصافات:١٠٩). أما في سورة البقرة فهي أكثر سور القرآن ذكراً لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فقد قال سبحانه: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾ (البقرة: ١٢٤)، منها محاولة

الملك الاعتداء على زوجته، وتأخر الرزق بالولد عمراً مديداً، ولما رزق به أُمر أن يبعده عنه إلى أرض لا زرع فيه ولا ضرع، ثم أُمر بذبحه، وابتُلي بأبيه صانع الأصنام، وابتُلي في مجتمعه برفض رسالته ومحاولة إحراقه، إلى غير ذلك من الابتلاءات التي يصدق فيها، قول ابن عباس: (لم يبتلَ أحد بهذا الدين

فأقامه إلا إبراهيم عليه السلام، ابتلاه الله بكلمات، فأتمهن، قال: فكتب الله له البراءة فقال: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾ (سورة النجم: ٣٧)، قال: عشر منها في «الأحزاب»، وعشر منها في «براءة»، وعشر منها في «المؤمنون» و «سأل سائل»، وقال: إن هذا الإسلام ثلاثون سهما)

(تفسير الطبري، ٢/٥٦٣).

أما لماذا ابتلاه اللّٰه كل هذا البلاء؟ فيفسره الحديث الذي أورده الترمذي من حديث سَعْدِ بن أبي وقاص رضي اللّٰه عنه قَالَ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟ قَالَ ﷺ: «الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، حَتَّى يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلى قَدَرِ دِينِه ، فَإِنْ كَانَ صَلْبَ الدينِ اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ

ابْتُلِيَ عَلى حَسَبِ ذلِكَ، أَوْ قَدَرِ ذلِكَ، فَمَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَدَعَهُ يمشِي فِي الأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»

(سنن الترمذي ،رقم: ٢٣٩٨، وقال:حسن صحيح، وأورده الألباني في صحيح الترغيب -،رقم: ٣٤٠٢، وقال حديث صحيح).

لقد كان سيدنا إبراهيم عليه السلام في البلاء رمزا وقدوة في الرضى عن الله والشكر له، والحق أنه إذا

ابتلانا اللّٰه فرضينا عنه فسنكون أهلاً لرضى اللّٰه، إذ كيف نطلب رضى من لا نرضى عنه؟! ليست العلاقة مع اللّٰه اتجاهاً واحداً بل مزدوجة، كما قال تعالى: ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (المائدة: ١١٩)، وقوله سبحانه: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة: ٥٤)، إذا أردنا أن نتذوق طرفا من

هذا الحديث الرائع من رب العزة عن خليله إبراهيم عليه السلام فسنجد أن ربنا سبحانه يقدم إبراهيم عليه السلام في أهل التمام والوفاء الكامل، كما قال ابن عطاء اللّٰه السكندري:«إذا أردت أن تعرف عند اللّٰه مقامك فانظر فيما أقامك»، كما قال تعالى:﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى** ﴾ (النجم : ٣٧) ، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ**

إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ (النحل: ١٢٠)، والسؤال هنا لماذا كان أُمَّة؟ ويأتي الجواب في الآية نفسها، لأنه كان: ﴿ **قَانِتًا لِلَّهِ** ﴾(النحل : ٣٧)، أي: قنوتٌ في الليل، ودعاءٌ في السحر، وبكاءٌ في الصلاة، وخشوعٌ ورجاء، ويضاف إلى هذا امتثاله للملك سبحانه: «اذبح ولدك، فكان لسان حاله أن قال: أنت يا رباه أحب إليَّ

من فلذة كبدي؛ فلأذبحن ولدي»، وشرع في التنفيذ العملي كما قص القرآن الكريم: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۞ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ**

﴿الـرُّؤْيَـا إِنَّـا كَـذَلِـكَ نَجْـزِي الْمُحْسِنِـينَ﴾ (الصافات : ١٠٢ - ١٠٥) ، والسؤال هنا: ألم يُسلم من قبل؟ والجـواب: بلى، ولكن هـذا تأكيد للالتزام وتجديد للإسلام وبيان عملي على حقيقة الإيمـان عندما يشتد الابتلاء على الإنسان، هنا يبدو بشكل واضح هل نحن تراب تذروه الرياح؟! أم حديدٌ يصدأ في

الماء؟! أم أننا ذهبٌ وألماسٌ يزيده الماء نقاء وتزيده النيران صفاءً؟! هكذا المؤمن وهكذا كان سيدنا إبراهيم عليه السلام، فلنتعلم كيف نواجه البلاء، كيف نتعود الرضا عن الله، والرضا معناه الشكر عند النعمة الأولى، واستمرار الشكر مع استمرار العطاء ، شكر قولي وشكر عملي، أما إذا حُمّ البلاء فالصبر

عند الصدمة الأولى، واستمرار الصبر مع طول البلاء.

ما أحلمك رباه على عبادك ترزقهم بالليل والنهار ويشكرون غيرك، كما قال سبحانه: ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ (سبأ : ١٣)، وكما جاء في الحديث القدسي حيث قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه : «إني والإنس والجن لفي نبأ عظيم أخلق

ويعبد غيري، أرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل وشرهم إلى صاعد، أتحبب إليهم بالنِعم وأنا الغني عنهم، ويبتعدون عني بالمعاصي وهم أحوج شيء إليَّ، أهل ذكري أهل محبتي، أهل محبتي أهل سيادتي، أهل معصيتي لا أقنِّطهم من رحمتي، فإن تابوا إليَّ فأنا طبيبهم، وأنا حبيبهم، فإني

أحب التوابين وأحب المتطهرين»

(أورده الألباني في السلسلة الضعيفة من حديث أبي الدرداء، ص٢٣٧١).

ولا زلت أتعجب من كثرة الاستمتاع بنِعم اللّه مع الكفر به وجحود فضله، وقد كنت قادما من أمريكا، وفي الطائرة إلى لندن كان عن يساري شيوعي ملحد من فنلندا، وعن يميني كاثوليكي من بريطانيا، يقول الملحد

كأنه يتنفس الهواء : «لا وجود لشيء اسمه اللّٰه»، ويقول الكاثوليكي: «إن اللّٰه متعدد»، فجلست أحاور الاثنين معاً: يا قوم إنه اللّٰه الواحد الأحد، هل من خالق غير اللّٰه يرزقكم من السماء والأرض؟!﴿**مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ (الصافات : ١٥٤)، كيف تكفرون وقد خلق اللّٰه وحده لنا السموات والأرضيين؟! ﴿**كَيْفَ**

﴿تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة : ٢٨).

ونحن الآن في عالم يمتلئ بالشيوعية والعلمانية وكلاهما ضلال، منهج الشيوعية: "لا إله والحياة مادة" أي لا وجود للّه ، ولا دور له في الحياة، وكانت هذه هي المادة الأولى في دستور الاتحاد السوفيتي الذي

حالفناه وأطعناه زماناً طويلاً، منذ النشأة في ١٩١٧/١٠/٢٣م حتى انهار في ٢٦ /١٩٩٢/١٢م، وورثت روسيا هذه العقيدة حتى اليوم، هذه هي المنظومة الأولى.

أما المنظومة الثانية فمنهجها: «ألا له الخلق ولنا الأمر»، أي أن الله موجود، ولكنه متعدد، فهو الذي خلق ونحن الذين نحكم، نفعل ما

نشاء، نُحل الربا والزنا والظلم والطغيان، نُحل تجارة المحرمات، وهؤلاء ملأوا الأرض ظلماً وفجوراً تحت عنوان الصليب، ثم يزعمون زورا أنهم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، والقرآن يكذبهم لأن إبراهيم عليه السلام الذي آمن بربه خالقا، أسلم له طائعا في كل شيء، فحقق الآية الكريمة: ﴿**أَلا**

﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ (الأعراف: ٥٤)، وهي المنطومة الأخيرة والصحيحة وحدها وغيرها فساد وكفر وضلال، وتبقى أمة الإسلام في اتباعها لنهج إبراهيم عليه السلام أولى الناس به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران : ٦٨)،

ويقـــــول سـبحـــانــــه:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْـلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(آل عمران : ٦٧)، لابد أن نواجه هؤلاء بالحوار إبرازاً لعقيدتنا الصحيحة:

﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾

(الأعراف: ٥٤)، فمن أنتج سلعة فهو وحده صاحب الحق أن يضع الدليل

لاستعمالها، والذي خلق السماوات والأراضين والإنس والجان هو وحده الذي يقر قانون التعامل في هذه الأرض، كما قال سبحانه: ﴿**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ (الملك: ١٤).

وقبل أن أختم سمو العلاقة مع سيدنا إبراهيم عليه السلام أحب أن أذكر هذا الموقف الذي يدل على رغبة

سيدنا إبراهيم عليه السلام في أن يتضلع من بحار الإيمان وأن يتشرَّب بكل وجدانه عقيدة التوحيد، فلا يكتفي بمقام الإيمان بل يجتهد في طلب مقام الاطمئنان، في يقينه الكامل بقدرة الرحمن على إحياء الموتى كما تصوره هذه الآية الرائعة:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ

﴿تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

هذا هو مقام سيدنا إبراهيم من ربه فأين نحن من الله سبحانه وتعالى؟!

الجانب الثاني

البر بالأب حتى لو كان كافراً

في الإسلام تقدير واحترام بالغين للأبوين، فقد قرن الله برهُما بعبادته سبحانه فقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ (الإسراء : ٢٣)، وقد ضرب سيدنا إبراهيم عليه السلام المثل الأعلى في

حسن تعامله مع أبيه، وخاطبه بلغة رقيقة مع أنه كان يتخذ أصناما آلهة ويعبدها من دون اللّٰه، ولكن إبراهيم عليه السلام ترفق به غاية ما يكون الرفق، وألان له غاية ما يكون اللين، وخفض له جناح الذل من الرحمة أروع ما تكون الذلة من ابن لأبيه، كما جاء في سورة مريم قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ

مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ۞ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ (مريم : ٤٢ - ٤٥) .

ومع هذا الأدب الراقي كان ردُّ الفعل من الأب عنيفاً، وكان ردُّ سيدنا إبراهيم عليه السلام لطيفا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً ۞ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ۞ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ**

مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (مريم: ٤٦ – ٤٨)، ولقد كافأ اللَّه خليله إبراهيم على هذا الصبر الجميل والأدب الجزيل بأن رزقه بإسماعيل وإسحاق عليهما السلام، وجعلهما عوضاً – في تمام البر به – عما لم يجده في أبيه: ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ**

إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً ۞ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ۞

(مريم : ٤٩ - ٥٠).

وهذا يؤكد أن بر الوالدين من الأعمال التي يُعجل ثوابها في الدنيا قبل الآخرة؛ فمن عَق والديه عُق من أولاده، ومن برَّ والديه برَّه أولاده ، هذا أمر مُشاهد لكن

للأسف الشديد هناك بعض ضيقي العقول الذين يواجهون الآباء لأتفه الأسباب أو لأعظمها بأسلوب لا يليق، ويخلطون بين الدعوة والولاء والبراء والبر بأصحاب الحقوق.

وعلى سبيل المثال ذهبت لأخطب الجمعة في إحدى الولايات الأمريكية حول «الولاء والبراء بين التأصيل الشرعي والتطبيق على المجتمع

الأمريكي»، فجاءني شاب أمريكي أسلم منذ شهور وقال : « لقد تعلمت في هذا المسجد غير الذي ذكرته في خُطبتك، علَّمني الإخوة هنا بعد أن أسلمت أن من البراء أن أتبرأ من أبي وأمي فلا أعاملهما أبداً، وقد كنت أبرَّ إخوتي بهم قبل الإسلام، فتركتُهم وهم يبكون ويُلِحون في الاتصالات ويرسلون

الأصدقاء وأنا أرفض قائلا: أنا قد أسلمت فلا علاقة لي بكم»، قلت : «لقد أخطأتَ مرتين مرة بحق الإسلام العظيم السمح الذي يؤدي الحقوق إلى أهلها ولو كانوا كفاراً ، ثم أخطأتَ في حق الوالدين فاستغفر اللّه ثم عُد لأبويك بهدية وقل لهما :إنني كنت أفهم الإسلام خطأ». وامتثلَ الأخ وأخذ هدية

وذهب إليهم معتذراً ، ثم ذهبتُ إلى الولاية نفسها في برنامج آخر، فوجدت هذا الشاب ينتظرني في المطار مع أمه، التي جاءت تشكرني أن رددتُ ابنها إليها بعد أن عقَّها وهجرها، وأضافت: «والأجمل أنك رددتني إلى الإسلام بعد أن سببتُه، وكنت أسب الإسلام الذي حرمني من ابني، والآن أنا مسلمة

بعد أن فهمت حقيقة الإسلام وليس الأوهام التي تُدرس من غير أدلة»، هذا هو الإسلام، فقال هذا الشاب الأمريكي: «الحمد للّٰه أسلمت أمي، وأبي في طريقه إلى الإسلام» .

وأقول بحق نحن نحتاج أن ندعو آباءنا؛ ومن الدعوة أن نفتح معهم كل الأبواب، فنتبرأ من الكفر ونؤدي الحق الذي علينا لهم في حسن

الصحبة وطيب الكلمة.

والدعوة العملية خير من الدعوة القولية، فاجعلوا بر الآباء فعلاً يقربهم إلى اللّٰه مهما كان بعدهم عنه.

أما الآباء الصالحون فهم أحق بتمام البر، وعظيم الحب، ووفرة الود، وحسن الرعاية، وجميل العناية، فهذا يمسح على قلوبهم،

ويبهج نفوسهم، ويشرح صدورهم، ويستمطر دعواتهم لأبنائهم وأحفادهم؛ فيمتلئ المجتمع بهذا البر وذاك الفضل، فيشيع الخير في المجتمع كله.

الجانب الثالث

حسن العشرة مع زوجتيه

في حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام نموذج يُقتدى في العلاقة مع زوجتيه في قمة العدل بينهما ومراعاة أعلى درجات الحكمة في التعامل مع المواقف التي تحدث بينهم، وعلاج رباني في استيعاب أية أزمة تطرأ على حياتهم، وكم نحن أحوج للاقتداء

بسيدنا إبراهيم عليه السلام في هذا الجانب لسد فجوات بين المتدينين أزوجاً وزوجات رغم علمهم بما رواه الترمذي بسنده عن عَائِشَةَ ـ رضي اللّٰه عنها ـ ، قَالَتْ: قالَ رسُولُ اللّٰهِ ﷺ : «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأهلي»

(سنن الترمذي، كتاب النكاح، باب فضل أزواج النبي ﷺ، ١٠، ٢٩٩،وقال: حسن غريب صحيح) ،

والحق أن هذا معيار صادق قوي لأن الزوجة هي الوحيدة التي تراك في فقرك وغناك ، في مرضك وصحتك ، في تعبك وراحتك، في ليلك ونهارك، في سفرك وإقامتك، في خلوتك وجولتك، والطبع يغلب التطبع .

لقد كان سيدنا إبراهيم عليه السلام أبرَّ

الناس بزوجته الأولى فأحبته حباً كبيراً، ولما جاءت محنة الملك الذي أراد أن يغتصبها، فتفاهما معا كيف يكون الخلاص بحسن التوكل على اللّٰه تعالى والدعاء له، فلما أخذها الملك عنوة، توضأت وصلَّت وقالت هذا الدعاء: " اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلا عَلَى زَوْجِي فَلا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ "

فأغشي على الملك مرارا حتى أطلقها مع الجارية هاجر، فوهبتها لسيدنا إبراهيم عليه السلام ليتزوجها لتحقق له أمنيته في أن يكون له ولد - وقليل من النساء بل نادر من تفعل ذلك- فلما حملت هاجر وخشي سيدنا إبراهيم على زوجته هاجر من غيرة سارة، لبست المِنْطَقَ لتواري الحمل مراعاة لفضلها ومشاعرها،

فلما اشتدت غيرة سارة بعد ولادة إسماعيل عليه السلام، لم ينسَ إبراهيم عليه السلام فضل زوجته الأولى، والتمس لها العذر، وأخذ هاجر - بأمر من اللّٰه - إلى بيت اللّٰه الحرام، وتركها حيث لا زرع ولا ضرع ، وسألته: «يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ، الذي ليس فيه إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارا ،

وجعل لا يتلفت إليها ، فقالت له : آللّٰه الذي أمرك بهذا ؟ قال : نعم، قالت : إذن لا يضيعنا» (رواه البخاري في الجامع الصحيح من رواية عبد اللّٰه ابن عباس، ص ٣٣٦٤).

لقد ابتلي سيدنا إبراهيم عليه السلام بتأخر الإنجاب فكان نِعم الصابر مع زوجتيه، لم تحدث أزمة ولم ينسَ حق أية زوجة ولم يهمل مشاعرها، بل

كان في قمة الوفاء، وفي غاية الحنو على زوجتيه حتى رزق بإسماعيل، وابتلي بأن يبعده عنه مع شوقه الشديد أن يكون مع ولده الحبيب، فأطاع أمر ربه ولانت زوجته لأمر اللّٰه، وابُتلي بذبحه فأقدم على تنفيذ أمر ربه لولا منحة اللّٰه، وأكمل اللّٰه له النعمة فحملت زوجته الأولى سارة جزاء صبره وحسن طاعته ووفائه

واستمراره في تبلغ دعوته رغم ما لاقاه من قومه، ويصور ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۞ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۞ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ**

اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿(هود : ٧١ ـ ٧٣) .

فكان بحق نموذجاً يقتدى به عند العقم والإنجـاب ليكون قـدوة لكل الأزواج سواء رزقـوا الأولاد أم لم يرزقوا.

إنها التربية الإبراهيمية ، التربية النبوية التي جعلت من البيت بستانا عـامـراً بالحب القلبي والتفاهم

العقلي والتناغم الجسدي، وقد قدمتُ إحصاءً وبيانات من استبانات وُزعتْ على ثلاث آلاف أسرة مسلمة في أمريكا، وكتبت كتابا عن الحياة الزوجية في الواقع المعاصر - مشكلات واقعية وحلول عملية - ، وكانت أهم النتائج أن أول ما يفتقد من البيوت هو الحب بين الزوجين، فلنملأ بيوتنا حباً أسوة بسيدنا

إبراهيم ﷺ، فإن الزوجة السوية تحتاج إلى قلبك مهما أهديت لها من الهدايا الثمينة، والزوج يحتاج إلى قلب زوجته، مهما قدمت له من أطايب الطعام والشراب، القلب هو مناط الحب، ثم العقل وهو مناط التفاهم، فيأتي الجانب الجسدي سلساً بعد ذلك، والحق أن أول من يجني ثمار هذا التوازن وملء الفراغ

بين الزوجين في الحب والتفاهم والتناغم هما الزوجان أولا فيسعدان ويأنسان ويُصبغا ذلك على أولادهما وأسرهما ومجتمعهما، ونحن أحوج ما نكون بحق إلى ملء هذا الفراغ حيث إن البديل المطروح فساد وفسوق وآلام وتفكك، وعُهر وجرم، وضيق وعذاب في الدنيا والآخرة معا.

الجانب الرابع
حسن تربيته لأولاده

لقد كان واضحا في عقل ووجدان سيدنا إبراهيم عليه السلام أولويات ومنهجية تربية الأولاد كما دعا ربه قائلا: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ**

أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم : ٣٧)، وفي هذا الدعاء تبدو أولويات التربية كما يلي:

(أ) التربية الإيمانية من خلال الارتباط بالصلاة والمسجد.

(ب) التربية الاجتماعية من خلال الارتباط بذوي الأفئدة السوية

والقلوب الحية.

(جـ) التربية المادية من خلال الثمرات الوفيرة مع ربط الجانب المادي بالجانب الإيماني شكرًا لله على نعمه.

وقد طبق سيدنا إبراهيم عليه السلام ذلك عمليا في جوانب عديدة منها ما يلي:

١- لم يكن يذهب للمسجد وحده

أو ينفرد بالدعاء دون ابنه بل كان في صحبة معه في كل خير، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

(البقرة : ١٢٧- ١٢٨).

٢- اتباع منهجية الحوار مع ولده حتى لو كان الأمر مقطوعا به من اللّٰه تعالى، وذلك ليقنعه ويستصحبه نحو فعل الخير، ولقد ظهرت آثار هذه المنهجية الواضحة في التربية عقديا، وهذا الدأب في التطبيق عملياً، في صورة ناضرة عندما أُمر بذبح ولده في منامه،

فلم يذهب في تنفيذ أمر ربه في ابنه عند نومه، بل أقبل على ابنه إسماعيل من وجهه، فحاوره حوار الرجال الأفذاذ مع الأبناء الكرام، فقال: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى**﴾ (الصافات : ١٠٢)، والسؤال هل بعد أمر الله للأب يصح أن يكون للابن رأيٌّ في أمر الله، والجواب

أن هذا إرساء لمنهجية إقناع الأبناء بالحوار، لا بالأوامر الصارمة التي تُلقى على الأبناء كالصواعق، فيتخذون مواقف لا ترضي اللّه ولا الآباء. أما هذه الصورة المثالية فقد جاءت في هذا الرد الراقي من ولده إسماعيل عليه السلام: ﴿**يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ (الصافات : ١٠٢)، ومما

يؤكد أن الحوار بين سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل كان ظاهرة متكررة وليست حالة واحدة، ومنهجية دائمة وليست واقعة فريدة، أن سيدنا إبراهيم فعل الشيء نفسه عندما أمره الله برفع القواعد من البيت، فجاء لولده إسماعيل كما سبق في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري والذي ذكرناه سابقا،

حيث جاء متوداً لولده وقال: «يا إسماعيل إن اللّٰه أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعيننني، قال: وأعينك، قال: فإن اللّٰه أمرني أن أبني ها هنا بيتا»، فما كان من الابن إلا أن نهض بكل حب مساعداً أباه، مشاركا إياه في هذا العمل التاريخي الذي خلَّده اللّٰه في العالمين، فلو أحسن الآباء الحوار

مع الأبناء لوجدوا خيراً كثيراً من أبنائهم أكثر مما يتوقعون.

٣- أن سيدنا إبراهيم عليه السلام استمر على منهج التوصية لأولاده جميعا كي تبقى نصائحه معمولا بها في حياته وبعد وفاته:

أ- أما الوصية في حياته فتبدو من قصة زيارته وتفقده ولده إسماعيل بعد زواجه الأول ولم يجده وسمع

من امرأته شكاية شديدة وضيقا بالحياة، وعدم ذكر أية إيجابيات لحياتها مع زوجها، فأدرك الأب أن هذه الزوجة لا تصلح لابنه الذي تربى على المكارم؛ فترك وصيته لابنه أن يغير عتبة داره، فطلقها إسماعيل على الفور، ولما زاره مرة أخرى بعد زواجه الثاني ووجد من امرأته قناعة ورضا وحمداً لله

على نِعمه وثناءً على زوجها، ترك وصية لابنه أن يثبت عتبة بابه، ففعل سيدنا إسماعيل، والشاهد هنا أنه ترك وصيته في الحالتين السلبية والإيجابية، بالتطليق في الأولى والتثبيت في الثانية، مما يدل على أنها منهجية ثابتة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من خلال الوصية، ومن الجدير بالذكر

أنــه إن كـان ذلـك حقـاً مشروعاً للآباء أن يتدخلوا في حياة الأبناء بعد زواجهم، فذلك مشروط بأن يكون وفق ضوابط صحيحة ومعايير شـرعيـة سليمة وليـسـت مسألة مـزاجيـة أو اتبـاعـا لـهـوى وعرف خاطئ، والإصرار على التدخل في النقير والقطمير والقليل والكثير في حياة الأبناء.

(ب) أما الوصية التي تركها لأولاده وأحفاده بعد وفاته فتبدو من قول الله تعالى: ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ (البقرة: ١٣٢)، ويبدو من الآية أن هذا المنهج في الوصية بإفراد الله بالعبودية والتزام الإسلام في كل الجوانب الحياتية

صارت أيضا منهجاً لأولاده من بعده حيث وصى إسحاق يعقوب، ووصى يعقوب أبناءه أجمعين ألا يموتوا إلا على الإسلام، وكان من آخر وأجمل دعاء سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ (يوسف : ١٠١)، فتلاحق خير سيدنا إبراهيم عليه السلام في بنيه، وتتابعت منهجيته في أحفاده، وحفظها النبي

ﷺ كمنهجية عن جده إبراهيم عليه السلام، ومن ذلك ما رواه الترمذي بسنده عن العرباض بن سارية رضي اللّٰه عنه قال: وعظنا رسول اللّٰه ﷺ يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول اللّٰه؟، قال: «أوصيكم

بتقوى اللّٰه ، والسمع والطاعة وإن عبدٌ حبشي (أي ولي عليكم) فإنه من يعش منكم يرَ اختلافا كثيرا، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ»

(سنن الترمذي،رقم: ٢٦٧٦، وقال: حسن صحيح) ،

وما أبلغها من موعظة في الوفاق

والشقاق، وفي العسر واليسر.

لقد غرس سيدنا إبراهيم عليه السلام في أولاده فأحسن الغرس، واستثمر الخير فيهم فأحسن الاستثمار، وأدركته العناية الربانية فحصد الثمرة كأحسن ما يكون الحصاد، وأنفع ما تكون الثمار، فوجد هذه الطاعة الكاملة من ولده حتى لو أمره بذبحه أو تطليق زوجة وتثبيت

أخـــرى، وطـاعـتـه في تحـمـل رفع القواعد من البيت في الأجواء الحارة الشديدة، وهكذا صار القدوة لكل أب إلى يوم الدين، وهكذا يجب أن نزرع في أولادنا الإيمان بالله أولاً، ثم العلاقات الاجتماعية السامية ثانياً، والسعي لتحقيق الوفرة المادية أخيرا، ونطبق ذلك عملياً بالحوار والمشاركة والتوصية لنجني ثمارا

قريبة من تلكم الثمار، ونتشبه بهذه النماذج الراقية كما قال الشاعر:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم

إن التشبه بالرجال فلاح

فإذا نزلنا من هذا النموذج الأسنى إلى واقعنا فسنجد انشغال الآباء في التجارة والتربح، وتوظفت الأم لتضاعف الدخل المادي، ونسوا أولادهم تزكية وتربية وتنقية كي

يكونوا نماذج صالحة لمجتمعهم، حتى إن ولداً سأل أمه : «لماذا لا أرى أبي؟! قالت : أبوك يعمل ليحصل على المال ليوفر لكم السيارة والبيت والكهرباء والفواتير ومصاريف التعليم . قال : كم يحصِّل أبي في الساعة ؟ قالت : ٢٠ دولاراً . فادخر الولد ما معه من دولارات وعدَّها فوجدها ١٠ دولارات ثم ذهب

واقترض ١٠ دولارات أخرى ، ووضعها في مظروف وقال لأبيه : أبي، أريدك أباً لمدة ساعة»، وهذه قصة واقعية وليست خيالية! .

يريد أولادنا آباء مربين لا ممولين، وأمهات مربيات لا خادمات ، يا إخواننا أحسنوا تربية أولادكم، واستثمروا أحسن الأوقات مع أبنائكم، عسى أن تجنوا ثمارا

تقترب مما جنى أبونا سيدنا إبراهيم عليه السلام، وإلا فنحن نيتم أطفالنا في الدنيا ونلقيهم في قعر جهنم في الآخرة، أما اليتم فلقول الشاعر:

ليس اليتيم من انتهى أبواه

من همّ الحياة وخلّفاه ذليلاً

إن اليتيم هو الذي تلقى لـه

أمّا تخلّت أو أبـاً مشغـولاً

الجانب الخامس

إكرام ونصح قومه ومجتمعه

بدأ بالعطاء والكرم والسخاء مع الدعوة والبيان، حيث كان مضيافا كريما، بل أورد الإمام مالك الحديث - كما سبق بيانه - : ﴿**كَانَ إِبْرَاهِيمُ أَوَّلَ النَّاسِ ضَيَّفَ الضَّيْفَ**﴾، وهذا نموذج من إكرامه للضيوف

عندما جاءته الملائكة في شكل بشر، فقدم أروع صور الإكرام للضيف، كما يلي:-

❁ قدَّم تحية أحسن من تحيتهم، حيث قالوا: ﴿**سَلاَماً**﴾ (هود : ٦٩)، أي الآن، لأنها جملة فعلية ترتبط بزمن محدد، فقال: ﴿**سلامٌ**﴾ أي في كل وقت وحين، مثل الفرق بين محمد أعطى، ومحمد معطاء،

فكانت أبلغ وأروع.

❋ دخل في هدوء دون ضوضاء قد تزعج الضيف: ﴿**فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ**﴾ (الذاريات: ٢٦).

❋ قدم أحسن ما يملك: ﴿**فجاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ**﴾ (الذاريات: ٢٦) وليس دجاجة هزيلة.

❋ ﴿**فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ**﴾، ولم يقرِّبهم إلى الأكل وهو أبلغ في

الإكرام.

❁ لم يأمرهم بأن يأكلوا بل رجاهم رجاءً رائعاً: ﴿**أَلَا تَأْكُلُونَ**﴾ (الذاريات : ٢٧).

فقدم أرقى درجة من الإكرام، والتقدير والاحترام.

يا إخواني ويا أخواتي اجعلوا بيوتكم قبلة كما كان أبونا سيدنا إبراهيم عليه السلام، افتحوها للناس

لا لتكون عزائم وولائم فقط، بل ميداناً للحب والإيثار والتعاون على البر والتقوى. نبدأ بالعطاء ثم إذا وجدنا من الناس شيئاً من الانحراف عن شرع اللّٰه نتخذ موقفا عمليا كما فعل سيدنا إبراهيم عليه السلام لما وجد قومه يعبدون الأصنام فبدأ بهذا الحوار الرائع كما تصوره آيات

سورة الأنعام : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ
اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا
رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ
الآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ
بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا
أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي
لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ
۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً
قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا

أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ
مِمَّا تُشْرِكُونَ ❁ إِنِّي وَجَّهْتُ
وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ
وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ❁ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ
قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ
هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ
بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا
وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا

تَتَذَكَّرُونَ ۞ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا
أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ
أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ
أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ
الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ وَتِلْكَ
حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ

عَلَى قَوْمه نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

(الأنعام : ٧٦ - ٨٣) .

هكذا كان سيدنا إبراهيم عليه السلام بارعاً مع قومه في استحداث وسيلة عملية وتمثيلية فنية حيث يصطنع اعتقاده أن الكوكب أو القمر أو الشمس آلهة ولكنها لا تصلح لغيابها وتقلُّبها، ثم

يدخل في حوار وحِجاج مع قومه، ويتحدث عن ربه أحسن ما يكون حديث المؤمن المحب لربه، ويظهر عدم خوفه مما يشركون به، ويبين لهم أن الإيمان بالله سيجلب لهم الأمن والأمان، والسعادة والاطمئنان، وهو ما يبحث عنه كل إنسان. غير أنه لم يكتف بالحوار عندما

استمروا في عبادتهم للأصنام، فكان هذا الموقف العملي مع ما فيه من مخاطر عليه لكنه أراد أن يؤدي واجبه في نصح قومه فكان هذا الحوار وذاك الموقع العملي الذي تصوره آيات سورة الأنبياء كما قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ**

لَهَا عَاكِفُونَ ۞ قَالُوا وَجَدْنَا
آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ ۞ قَالَ
لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ قَالُوا أَجِئْتَنَا
بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۞
قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا
عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۞
وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم

بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۞
فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا
لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۞
قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا
إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ قَالُوا
سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ
لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالُوا فَأْتُوا
بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ ۞قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ

هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۞
قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا
فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ
۞ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ
فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ۞
ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ
۞ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا

وَلَا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۞ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۞ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ (الأنبياء: ٥٢ ـ ٧٠).

هكذا بدأ بالحوار، ثم بتحطيم

الأصنام؛ مما جعلهم يُقرون أنهم هم الظالمون، لكنهم تمادوا في باطلهم، واجتمعوا على حرقه فكان العون من اللّه كاملاً ، وتحولت النار الحارقة إلى برد وسلام، وتحول الخوف إلى أمن واطمئنان، فخسروا ونجا، وحمله اللّه إلى الأرض المباركة فلسطين، ووهبه إسحاق ويعقوب،

وجعلهما من الصالحين، واصطفاهم بين العالمين. لكن العجيب الذي يجب أن نتوقف عنده كثيراً في موقف سيدنا إبراهيم من قومه رغم كفرهم وفجورهم وبخاصة قوم لوط، أنه شُغل عن البشرى المزدوجة بإسحاق ويعقوب وهي تعني أنه سيرزق بإسحاق وأنه سيعيش

حتى ينجب إسحاق يعقوب، ومع هذه البشريات الربانية العظيمة التي طال انتظاره لها شُغل عنها بالجدال عن قوم لوط ورجاء من اللّه أن يؤخر عذابهم وأن يتابع دعوته مع قوم لوط عسى أن يتركوا نشوزهم وفجورهم، حتى أخبره اللّه تعالى أنهم لن يُفيقوا من سكرتهم، وتصور

الآيـات هذا المشهد العجيب في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْـرَاهِـيـمَ الـرَّوْعُ وَجَـاءَتْـهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَـوْمِ لُوطٍ ۞ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۞ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (هود: ٧٤-٧٦). وهذا

يؤكد على أهمية حرص الداعية على قومه، حرصاً ربما يشغل الإنسان عن شؤونه الخاصة بل تطفو آلام قومه على حاجاته ومطالبه الأصلية، وقد هيأ اللّه ذلك كله في سيدنا إبراهيم عليه السلام ليكون مثالا لكل مسلم أن يفتح قلبه وعقله وبيته لقومه وعشيرته ومجتمعه، إكراماً

ونصحاً وإرشاداً وصبراً على أذاهم، ولا شك أن من يفعل ذلك ستحوطه العناية الربانية ليكون على مستوى أسرته وعائلته ومجتمعه أسبق قومه إلى الفلاح والنجاح والفوز في الدنيا والآخرة، مهما لاقى الإنسان من المعارضة والمطاردة، فسيأتي الخلف من اللّه ثَرياً، على قدر

اقترابنا من نموذج المصلح الاجتماعي إبراهيم عليه السلام .

وسؤالي لنفسي وإخواني ماذا نحن فاعلون في الأيتام والفقراء والمساكين والمحتاجين؟ ماذا نحن فاعلون في تارك الصلاة من أهلنا وقومنا وعشيرتنا؟ ماذا عن الذين أغوتهم الأفلام والمسلسلات وألوان الفساد؟

هل لهم أصحاب يدعونهم إلى الهدى ائتنا؟ لماذا لا نستضيفهم في بيوتنا، وندعوهم من أعماق قلوبنا، ونأخذ بأيديهم إلى كتاب ربنا، وهدي نبينا، ونستصحبهم إلى بيوت ربنا، وحلقات العلم ليكونوا تلامذة صالحين في حلقات شيوخنا وعلمائنا، ويستشعر هؤلاء قوة حبنا لهم

ورغبتنا في أن نكون لهم الصديق الحميم والخِل الناصح الأمين، لنكون معا صحبة في الدنيا في فعل الخير ونفع الغير وفي الآخرة في أعلى عليين من الجنة.

إنني أخشى أن ترتفع الشكوى إلى اللّٰه يوم القيامة من هؤلاء الذين أهملناهم بعيدين عن اللّٰه: ربِ سَل هذا لماذا رآني أفعل المنكر

فلم ينهني؟ وأترك المعروف فلم يأمرني؟ لقد جاء مسلم جديد عرف الإسلام وحده يشكو إلى اللّٰه حول الكعبة قائلا: "رباه إني أشكو إليك المسلمين الذين تركوا أبي يموت على غير الإسلام!".

الجانب السادس

الإيجابية مع السلطة السياسية

لقد كان سيدنا إبراهيم إيجابيا أحسن ما تكون الإيجابية مع سلطة تعلن الكفر واضحا فلم يواجهها بالعنف والقتل والتخريب والدمار بل بالحوار والجدال، من غير اعتداء ولا اعتزال، كما قال سبحانه : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى**

الَّذي حَآجَّ إبْرَاهيمَ فِي رَبِّه أَنْ آتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ إذْ قَالَ إبْرَاهيمُ رَبِّيَ الَّذي يُحْيِي وَيُميتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُميتُ قَالَ إبْرَاهيمُ فَإنَّ اللَّهَ يَأْتي بالشَّمْسِ منَ المَشْرِقِ فَأْتِ بهَا منَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالمِينَ﴾ (البقرة : ٢٥٨).

واجبنا الإرشاد والبيان في ثوب قشيب، حجة بالغة في قوة نادرة، اقتداء بسيدنا إبراهيم عليه السلام في الإيجابية مع الحوار وسرعة البديهة، وقوة في الإقناع؛ بهتت الكفر وأهله، وبقي نموذجا في التفاعل الدائم لدى من يريد أن يلقى الله تعالى غير مضيِّع لأمانة النصح لله ولرسوله ولكتابه

ولأئمة المسلمين وعامتهم، بدلا من الفضفضة بالنكت والطرائف تنفيساً لاحتقان النفس، وتسريبا لغيرة القلب على الحرمات التي تنتهك في كل مكان حولنا.

إن هناك من صفوة المتعبدين من يرى أن السلامة لدينه أن يبتعد عن السياسة وهمومها ، والأمور العامة وتقلباتها، وهذا

قطعا يخالف ملة إبراهيم، ويجافي منهجه، ويبتعد عن الهدي النبوي، وهو ركون إلى سلامة لا تدوم في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا ليس ديناً بل هو جبن وخوف وهلع يجب أن يعالج بالنصوص الجليات ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا**

تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران :١٧٥) تخلية عن الجُبن، وتحلية بالشجاعة والأدب والتوكل على الله تعالى كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر : ٣٦) .

بالإضافة إلى التخلية عن الجُبن والتحلية بالشجاعة نريد أن نقرأ كثيرا ونتدبر أكثر، لنمتلك القدرة على الحوار المباشر مع كل المستويات الفكرية والسياسية أو الحوار عن طريق الإنترنت، وهنا أسوق قصة تغري بفتح هذا الحوار الجاد حيث ذهبتُ إلى أحد المراكز

الإسلامية الأمريكية في ولاية كنتاكي وطلب أحد الأخوة أن نحاور إحدى القيادات الأمريكية على «الماسنجر»، وكانت تسب الإسلام لأنه - حسب معلوماتها - يُهين المرأة، فقبلتُ بشرط أن يدعو الله ليهديها أثناء حواري معها، لأننا نحب للناس الهداية. فبَدأتْ بسبٍ فظيع للإسلام ،

فامتصصتُ هذا الغضب وأقمتُ الحجة على إكرام الإسلام للمرأة أكثر من أي دين، وبعد ساعة وربع من الحوار، أدركها فضل الله عز وجل فقالت: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)، فكبَّر جميع من كانوا معنا في غرفة الحوار.

وأقسمُ بالله أن العالم ينتظرنا

كي نتحاور معه، وقد فتح اللّٰه أبواب الفضائيات والإنترنت ليكون ابتلاءً لكل مسلم، ليحمل الدعوة ويوصلها لكل ذي خفٍ وحافر، بعز عزيز أو بذل ذليل، كما قال الحبيب وبشَّر ﷺ .

الجانب السابع
التخطيط لإصلاح المستقبل

أخيراً لم يصلح سيدنا إبراهيم عليه السلام عالمه ومجتمعه فقط، وإنما نظر إلى المستقبل القريب والبعيد، فكان أول شيء اختاره الشعار العظيم: ﴿ **هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ** ﴾(الحج : ٧٨)، وما أجمله من شعار وأروعه من

اختيار، كما قال سبحانه: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ (فصلت : ٣٣).

ورحم الله من قالها اعتزازا وافتخارا يمتد من واقعنا إلى عمق التاريخ ليصل أجره إلى سيدنا إبراهيم خليل الله عليه أفضل الصلاة والسلام .

وكان الاختيار الثاني بعد الشعار هو «الرجل»، فأسس لمنهجية أن التغيير والإصلاح يبدأ بوجود الرجل المصلح، القائد الفذ، يبدو ذلك من دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ**

﴿إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩)، وأورد ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٢٥٦) بسند قوي أن الرسول ﷺ قال: (أنا دعوة أبي إبراهيم).

هذه الرؤية الفذة أن الإصلاح يبدأ باختيار شعار ورسالة سامية ولابد لها من رجل يقوم أولا بنشر العلم، سواء كان وحيا أو فكرا مع

ارتباط ذلك بالتزكية والتنمية البشرية، ولا يجدي الإصلاح مع كثرة المال وتعدد الخطط ما لم تتضح الرسالة ويوجد القائد المعلم والمربي.

أما واقعنا فيحتاج إلى إعادة بناء، نحن لدينا عربات بلا أحصنة تجرها، و مدراس بلا مربين فيها، نريد أن نبني الحصان

قبل العربة، والمربي قبل المدرسة، والإمـــام قبل المسجد، والمدير قبل الشركة، عملا بدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام.

ها هو سيدنا إبراهيم عليه السلام قمة التوازن في اكتمال دوائر الالتزام السبعة، وهذه هي نقطة النبوغ الأولى، كما بدا لي من جولة التدبر في آيات الله تعالى عن

سيدنا إبراهيم كما أفهم من قوله تعالى:﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(البقرة : ١٣١)،هذا هو المثل الذي يجب أن نقتدي به في كل الجوانب، في جميع مناحي الحياة، حُلْوها ومرها، صغيرها وكبيرها، ولعل هذا أحد الأسباب الكبرى وراء ذكر سيدنا إبراهيم

في التشهد قبل أن نخرج من الصلاة إلى الحياة حتى نستعيد هذا التوازن، ونكمل حلقات الالتزام في حياتنا.

الخلاصة

١) يبدو لي - بحق - أن أكبر نقاط تميز سيدنا إبراهيم عليه السلام هو اكتمال جوانب الالتزام السبعة، وهي: علاقته بربه، وأبيه، وزوجتيه، وولده، وقومه، والسلطة السياسية، وإصلاح المستقبل، دون أدنى درجة من الإخلال بأيٍّ من هذه الجوانب.

٢) حمل سيدنا إبراهيم عليه السلام في قلبه وعقله أرقى العلائق مع اللّٰه تعالى قنوتاً وإخباتاً، وشكراً ودعاءً، وحلماً وإنابةً، وتماماً ووفاءً، فكان رمزاً في كمال التسليم لأمر اللّٰه تعالى مهما كان الأمر شديدا على النفس.

٣) وقد جاءت علاقته عليه السلام بأبيه رغم كفره وشدته نموذجاً

يقتدى، ومثالاً يحتذى في الرفق والأدب، والنصح وطيب الخُلق، مما نحتاج معه أن نراجع مفاهيم الولاء والبراء مهتدين بهدي سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه.

٤) لقد ضرب سيدنا إبراهيم عليه السلام المثل الأعلى في حُسن العِشرة مع زوجتيه في العدل

بينهما عامة، وفي الربانية والحكمة مع زوجته الأولى سارة خاصة في المحنة مع الملك الظالم الذي أراد اغتصابها، ومع زوجته الثانية هاجر لما حملت ووضعت إسماعيل عليه السلام فوضعها بجوار بيت الله الحرام وتعاهدها مع ولدها بشكل دائم، كما كان نموذجا يقتدي لكل الأزواج عند

العقم والإنجاب.

٥) يقدم سيدنا إبراهيم عليه السلام مثالا أروع في تربية أولاده فهماً وتطبيقاً حيث كان مهتماً بالتربية الإيمانية أولاً، ثم التربية الاجتماعية ثانياً، والمادية أخيراً، وعملياً: كان يأخذ أولاده معه إلى المسجد، والتزم منهجية الحوار مع أولاده في كل موقف،

حتى في المقطوع به شرعا، كما اعتمد منهجية الوصية لأولاده في حياته وبعد وفاته، مما يوجب مراجعة مناهج ووسائل التعامل مع أولادنا في ضوء هذا الهدي الإبراهيمي.

٦) تتجلى مواقف سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه في البدء في العطاء وشدة الحرص على قومه قبل

النصح والتوجيه، وفي جعل بيته قبلة للضيفان وذوي الحاجات، ثم ابتكار وسائل جديدة في الدعوة، مثل تصنعه أنه يؤمن بأن الكوكب أو القمر أو الشمس آلهة يمكن أن تعبد، ثم حزمه بعد ذلك في تكسير الأصنام، واحتماله البلاء في سبيل نشر عقيدته بين قومه، مما يؤسس

لضرورة الذكاء الاجتماعي والعطاء الإنساني مع التجديد والابتكار في وسائل الدعوة.

٧) يقدم سيدنا إبراهيم عليه السلام نموذجا آخر في الإيجابية الراشدة مع السلطة السياسية مهما كانت ظالمة كافرة ملحدة فلم يعتزل النمرود أو يعتدي عليه، بل اختار الحوار القوي

والحِجاج الذكي؛ حتى بُهت الذي كفر، مما يؤسس لضرورة العمل السياسي الراشد.

٨) لم يكتفِ سيدنا إبراهيم عليه السلام بإصلاح زمانه الذي عاش فيه بل كان مُلهماً في وضع معالِم إصلاح المستقبل إلى يوم القيامة، في اختيار الشعار والاسم الرائق السامي "المسلمين"، ودعا

اللّه أن يبعث في الأمـة رجـلاً، وحـدد مهامه في التلاوة والعلم والتزكية، فالإصلاح يبدأ إذن باختيار الرسالة ثم الرجل الفذ الذي يحمل الرسالة إلى الناس أجمعين.

المحتوى

تقديم. ٣

المقدمة. ٥

المطلب الثاني: سيدنا إبراهيم عليه السلام واكتمال جوانب الالتزام السبعة: ١٢

الجانب الأول : سمو علاقته بالله عز وجل. ١٤

الجانب الثاني : البر بالأب

حتى لو كان الأب كافراً . ٣٩

الجانب الثالث:

حُسن العشرة مع زوجتيه. ٥٢

الجانب الرابع :

حُسن تربيته أولاده. ٦٥

الجانب الخامس :

إكرام ونصح قومه ومجتمعه. ٨٨

الجانب السادس:

الإيجابية مع السلطة السياسية. ١١٣

الجانب السابع: التخطيط
لإصلاح المستقبل. ١٢٣
الخلاصة. ١٣١
المحتوى. ١٤١